الترف وأثره في أزمة الحضارة المعاصرة
في ضوء فلسفة ابن خلدون للحضارة

د. الشريف طوطاو

جامعة خنشلة

تحاول هذه الورقة أن ترصد العلاقة الجدلية بين الترف وفساد الأخلاق وانهيار الحضارة كما قررها ابن خلدون في تفسيره لقيام الحضارات وانحطاطها، وغرضنا من ذلك الإجابة على سؤال أساسي، وهو: إلى أي مدى يمكن اعتبار هذا التفسير الخلدوني قانونا أو سنة قابلة للتعميم؟

ولأجل ذلك، فقد ارتأينا تقسيم بحثنا إلى مبحثين أساسيين: يتناول الأول منهما نظرية ابن خلدون حول أثر الترف في فساد الأخلاق، ومن ثمة، في انهيار الحضارة، بينما نحاول في المبحث الثاني منهما إسقاط هذه النظرية على واقعنا الراهن أو بالأحرى محاولة اختبار مدى رانهيتها، وذلك بإسقاطها على واقع الحضارة المعاصرة، فنبين مظاهر الترف في الحضارة المعاصرة وانعكاساتها على الأخلاق، وأثر ذلك في أزمة الحضارة المعاصرة، ثم محاولة استشراف مستقبل هذه الحضارة في ظل ما تعانيه من أزمة(امتدادات نظرية ابن خلدون في الفكر المعاصر).

المبحث الأول: أثر الترف في انهيار الحضارة من منظور ابن خلدون

يعد ابن خلدون من أنصار الاتجاه السنني في تفسير الحضارة إن لم يكن هو رائده في الفكر الإسلامي، والفكرة الأساسية في هذا التفسير تتلخص

في القول بأن قيام الحضارات وسقوطها تخضع لقوانين وسنن ثابتة لا تتخلف أبدا، فلا مجال، إذن، للصدفة أو الاتفاقية والعشوائية في قيام الحضارات وأفولها، وهذا يعني أن الظواهر الحضارية ـ وهي نوع من ظواهر العمران البشري ـ تخضع لمبدأ الحتمية شأنها في ذلك شأن الظواهر الطبيعية، فنفس الأسباب تؤدي حتما إلى نفس النتائج، وهذا يعني أنه إذا ما استطعنا معرفة السنن التي تتحكم في قيام الحضارات وأفولها، فإننا نستطيع استنادا لذلك التنبؤ بقيام الحضارات وأفولها. وبفضل هذا الاتجاه السنني في تفسير التاريخ والحضارة اكتسبت نظريات ابن خلدون وآراؤه علميتها.

ومن جملة الآراء التي اشتملت عليها نظريات ابن خلدون في تفسير الحضارة، قوله بأن الترف يعد من بين العوامل الأساسية في انهيار الحضارة(الدولة) وزوال الملك. فما المقصود بالترف عنده؟ وكيف يكون عاملا مؤثرا في سقوط الحضارة؟

1. مفهوم الترف عند ابن خلدون

من المعروف أن ابن خلدون يستخدم منظومة اصطلاحية غنية بالمفاهيم والمصطلحات، بعضها أخذه من القرآن الكريم وبعضها الآخر أخذه من العلوم المختلفة التي كانت متداولة في الحقل الابستمولوجي الإسلامي كعلم الكلام والفقه وأصوله والتصوف وعلم الحديث... ومن هذه المفاهيم مفهوم الترف الذي ورد في مواضع مختلفة من المقدمة سواء في عناوين الفصول أو في متونها، وبتتبعنا لهذا المصطلح ومعناه حسب السياقات التي ورد فيها يمكننا القول بأن المعنى الذي يعطيه ابن خلدون له لا يخرج عن المعنى المتعارف عليه والمتداول في اللغة العربية قديما وحديثا، والذي يدل على التنعم بمتع الحياة الدنيا وخيراتها وزينتها من مأكل وملبس وأثاث ومركب (سيارة أو غيرها) ومفروشات وغيرها، فالترف عنده يدل على تجاوز ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله (كمالياته) ورقته وزينته وخصبه، كما يعني النزوع إلى رقة الأحوال في

المطاعم والملابس والفرش والآنية، والتفاخر في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفار، فالترف يدل إذن على الإفراط في التأنق في الملبس والمسكن والأثاث والمركب، واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب، وبذلك فهو يتضمن معنى الإسراف والتبذير، والترف يأتي في مقابل الشظف الذي يدل على التقشف وخشونة العيش والاكتفاء بالضروري من المعاش[1]. ويعرفه عبد المجيد مزيان بقوله: "هو حالة المعاش المتفنن الراقي الذي يصل إليه المتحضرون في منتهى أوجهم الحضاري. ولا معاش فوقه من حيث الرقي، بل هو متبوع حتما بانحطاط الأقوام الذين ينتحلونه"[2] .

ويذهب ابن خلدون إلى أن الترف من طبيعة الملك، بمعنى أن الترف لا يكون في طور العصبية الذي هو طور بناء الدولة وطلب الملك، وإنما يسود الترف وينتشر حين تنشأ الدولة ويحصل الملك (طور الحضارة)، ويبرر ذلك بقوله: "وذلك أن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته. ويذهبون إلى إتباع من قبلهم في عوائهم وأحوالهم، وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها، وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية، ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم، في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفارة ويناغي خلفهم في ذلك سلفهم إلى آخر الدولة. وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك، وترفهم فيه، إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائد من قبلها. سنة الله في خلقه"[3]، وهكذا، فإن أحوال الناس تنقلب من حال إلى حال

[1] ـ مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ص 168، 143.

[2] ـ عبد المجيد مزيان، عبد المجيد مزيان، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، المؤسسة الوطنية للاتصال،النشر، والإشهار، الجزائر، ص 277 ــ 278.

[3] ـ ابن خلدون، المقدمة، ص168.

بحسب كل طور من أطوار الحضارة، فإذا كان الناس في طور البداوة يكتفون بخشونة العيش أي بالضروري من المعاش دون الالتفات إلى الكماليات، فإن حالهم يتغير في طور الحضارة إذ تصبح حياة الترف هي ما يميز أحوالهم، ويزداد الترف بينهم بحسب زيادة الملك، وفي نظر ابن خلدون، فإن حياة الترف هذه يتم توارثها فتنتقل من السلف إلى الخلف إلى أن تسقط الدولة ويضيع الملك من أيدي أفرادها، وفي ذلك يقول: "فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة، ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس، فيبنون القصور، ويجرون المياه، ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب، ويتأنقون في أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا، ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم، ولا يزال ذلك يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره"[1].

2 ـ دور الترف في فساد الأخلاق

يعد الترف في نظر ابن خلدون من العوامل الأساسية والحاسمة في ضعف الدولة والتي تعجل بانهيارها وضياع الملك مثلما كان عامل قوة لها في أولها، "فبين الترف والدعة والسكون، وبين سريان الهرم في الدولة ومصيرها إلى الفناء، علاقة طردية أكيدة، يرسمها ابن خلدون بالقانون القاضي بأنه "على قدر الترف والنعيم يكون الإشراف عل الفناء"[2]. ويفسر ابن خلدون ذلك بأسباب اقتصادية وأخلاقية ونفسية[3]، وسيكون مدار بحثنا في هذا المقام على الجانب

[1] ـ المصدر نفسه، ص 168.

[2] ـ صائب عبد الحميد، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي دراسة مقارنة بالمدارس الغربية الحديثة، دار الهادي، بيروت، ط1، 2007، ص377. وانظر أيضا: المقدمة، ص 143

[3] ـ أحمد محمود صبحي، فلسفة التاريخ، ص147 .

الأخلاقي دون سواه. فما هي آثار الترف على الأخلاق، ومن ثمة على الحضارة؟

يرى ابن خلدون أن الترف يؤثر على الأخلاق تأثيرا سلبيا، ومن ثمة، فهو مهلك للحضارة ومفسد لها، وهذا يبين الأهمية التي يوليها ابن خلدون للأخلاق والقيم كركيزة ومقوم أساسي للحضارة، ففساد الأخلاق عنده يؤدي إلى انهيار الحضارة، وهذا ما عبر عنه الشاعر حديثا في قوله:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ××× فان هم أخلاقهم ذهبت ذهبوا

إن الترف إذن، يؤدي إلى انقلاب القيم، "فلحمة العصبية أو شحة الرابطة القومية التي نبعت في أول الأمر بفضل دوافع معنوية هي البحث عن المجد والملك سرعان ما تتحول بعد حصول هدفها القريب هذا إلى نوازع مادية تنتكص إلى أحط المدركات الحيوانية من حرص على المأكل والملبس والفراش والآنية تتحول الرجولة إلى تخنث، والعزة إلى ذل، وضبط النفس إلى تفسخ، وانغلاق في مجاري الفساد والاستسلام للملاذ، وينعكس كل ذلك على هيكل الدولة وحاشيتها وكل من يدور في فلكها، فيجف جذعها وتتهاوى أغصانها ولا يبقى فيها من الصلاح شيء، إلا أن يجهز عليها حاب جلف فيقتلع جذورها ولا يبقى لها في التاريخ أثر ولا ذكر"[1].

وقد نبه مالك بن نبي إلى هذه المسألة في فلسفته للحضارة، حيث بين أن تطور الحضارة وأفولها يتوقف على نوعية القيم السائدة، ففي مرحلة الروح تسود القيم الروحية التي تجعل الأفراد يغلبون القيم الروحية على القيم المادية، فيضحون بالماديات الأمر الذي يؤدي إلى سيادة قيم المحبة والتضامن والتضحية، وفي مرحلة العقل تسود قيم مغايرة هي قيم التفكير والعلم التي تؤدي إلى تطور العلوم والفنون، ثم في مرحلة الغريزة التي يمكن أن نشبهها

[1] ـ عبد الله شريط، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص(360 ـ 361).

بمرحلة الترف عند ابن خلدون تطغى القيم المادية، ويصبح الفرد يفكر في إشباع غرائزه ومتطلباتها المادية والبيولوجية، فتتفكك بذلك منظومة القيم الأمر الذي يؤدي إلى انحطاط الحضارة.

لقد نبه ابن خلدون إذن، إلى أن الترف يشكل معول هدم للحضارة (الدولة) وذلك لما يلزم عنه من فساد أخلاقي، فهو يرى أن "عوائد الترف تؤدي إلى العكوف على الشهوات وتثير مذمومات الخلق فتذهب عن أهل الحضر طباع الحشمة ويقدعون في أقوال الفحشاء فضلا عن أن الترف يذهب خشونة البداوة ويضعف العصبية والبسالة حتى إذا انغمسوا في النعيم فإنهم يصبحون عيالا على الدولة كأنهم من جملة النسوان والولدان المحتاجين إلى المدافعة عنهم، فالترف مفسد لبأس الفرد ولشكيمة الدولة والترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الفساد والسفه، والترف مظهر لحياة السكون والدعة ودليل ميل النفس إلى الدنيا والتكالب على تحصيل متعها حتى يتفشى الخلاف والتحاسد ويفت ذلك في التعاضد والتعاون ويفضي إلى المنازعة ونهاية الدولة"[1].

إن الترف إذن، لا يؤثر على اقتصاد الدولة فقط بما يتسبب فيه من زيادة النفقات نتيجة الإسراف والتبذير في المأكل والملبس والمسكن والمركب والمفروشات والأثاث وغيرها، فذلك له من دون شك تأثيره، غير أن خطره الأكبر على الدولة وعلى الحضارة يأتي من تأثيره السلبي على الأخلاق، حيث يتسبب في إفساد الأخلاق الأمر الذي يؤدي إلى انهيار الحضارة، وهو ما يوضحه قول ابن خلدون: "فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس منن ألوان الشر والسفسفة وعوائدها...فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلا عليه، ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر، فتكون علامة على الإدبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته، وتأخذ الدولة مبادئ

[1] أحمد محمود صبحي، مرجع سابق، ص 149

العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها"[1]، ففي هذا النص يؤكد ابن خلدون بأن الترف يقضي على أخلاق الفضيلة والخير التي هي أساس بناء الحضارة، وتحل محلها أخلاق الرذيلة والشر التي هي سبب أفول الدولة وانهيارها. فالظلم، وهو من أهم الرذائل، مؤذن بخراب العمران ـ كما يقول بن خلون[2]. ومن هنا يتضح مدى اهتمام ابن خلدون بالأخلاق كضرورة لتماسك الملك واستمرار وجوده الحضاري، وليست الأخلاق ضرورة للرئيس فقط، بل هي ضرورة لكل الناس، ويقر ابن خلدون الأخلاق كشرط أساسي لبقاء القبيلة، وأن من كان يطمح في الملك والرئاسة لا بد أن يكون عادلا جوادا يكرم أساطين الدين، ويجل العلماء، وكذلك يؤكد ابن خلدون على ضرورة وجود عقيدة دينية أو سياسية لتأسيس الدولة وقيام الملك، وتحديد الغاية التي تجري نحوها القوة الاجتماعية، المكونة من قوة العصبية والفضيلة حتى لا تتحول هذه القوة إلى تنازع وتنافر داخلي ـ كما كان حال العرب قبل الإسلام وغيرهم من الأمم الجاهلية الهمجية التي لا دين سماوي يضبط حركتها، ويوجه قوتها، والعرب مع ما كانوا يتمتعون به من صفات وقيم حضارية كالصبر والشجاعة والذكاء والكرم...فلم تؤهلهم هذه القيم لتكوين حضارة لخلوها من العقيدة السليمة والتصور أو الغاية من الحياة"[3]. وهذا يعني أن القيم وحدها لا تكفي لبناء الحضارة، لأن الإنسان شأنه شأن المجتمع ، يحمل دوما القيم في أي طور كان من أطوار الحضارة، غير أن العبرة في النهاية تكمن بطبيعة القيم المكتسبة، فالقيم مالم تستمد مرجعيتها من دين سماوي، ومن رؤية صحيحة فقدت قيمتها ودورها في بناء الحضارة، والدليل على ذلك

[1] ـ ابن خلدون، المقدمة، 170

[2] ـ المصدر نفسه، ص 272

[3] ـ محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1996، ص113

كما قلنا أن العرب لم يستطيعوا بناء حضارة مزدهرة ومتميزة إلا بعد أن اكتسبوا قيم الإسلام السامية والسمحة التي مدارها التوحيد.

هكذا إذن، يتبين لنا بأن ابن خلدون قد أدرك الدور الخطير للقيم في بناء الحضارة، واستنادا لذلك، وضع نظريته حول "دور الترف في انهيار الحضارة"، ويمكن القول بأن هذه النظرية تستمد صدقيتها ومرجعيتها من مصدرين اثنين، أولهما: ملاحظة الواقع واستقراء التاريخ، فقد أكد محقق المقدمة (الشيخ عبد الواحد وافي) "أن جميع قوانين ابن خلدون وأفكاره مستمدة من ملاحظاته لظواهر الاجتماع في الأمم التي شاهدها أو عرف تاريخها بدون أن يستوفي مبدأ فلسفيا أو يتأثر برأي مبيت من قبل كما فعل غيره من فلاسفة الحضارة في الغرب، ومن ثمة، كان منهجه أدق وأقرب إلى المنهج العلمي من غيره"[1]. وأما المصدر الثاني، فهو القرآن الكريم الذي لا يفتأ في الرجوع إليه واتخاذه مصدرا يتوكأ عليه ويعضد به نظرياته وآرائه، ومنها نظريته حول الأثر السلبي للترف على الحضارة التي نحن بصددها، ودليلنا في ذلك قوله في المقدمة: "إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة، حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها، فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم، ويتبدل به سواهم: وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا"[2].

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن هلاك القرى (وهذا ينطبق قياسا على الدول والحضارات أيضا) لا يحدث صدفة واتفاقيا، كما لا يحدث بقضاء من الله ظلما وعدوانا، كما جاء في قوله تعالى : "وما كان ربك مهلك القرى بظلم"، وإنما يحدث الهلاك والإفناء بإرادة من الله بعد أن تتوفر أسباب ذلك، وهي كما

[1] ـ نقلا عن هيشور، مرجع سابق، ص118.

[2] ـ صائب عبد الحميد، مرجع سابق، ص378.

حددتها الآية الكريمة ما يصدر عن المترفين من فسوق، أي، من فساد أخلاقي، فثمة إذن، ما يمكن أن نعتبره سنة من سنن الله في قيام الحضارات وأفولها، ويمكن صياغتها كالتالي:

ترف ـ فساد أخلاقي (فسوق) ـ هلاك وتدمير

وقد أدرك ابن خلدون هذه السنة واتخذها نظرية له.

ويمكن أن نفهم من هذا أيضا، أن الهلاك والتدمير الذي أشارت إليه الآية لا يكون بسبب خارجي (عدو خارجي مثلا)، ولا بسبب جبرية دينية (قضاء وقدر) كما قد يوحي بذلك ظاهر الآية (إرادة الله)، بل إن الهلاك يعود إلى أسباب داخلية تتمثل في عامل الترف وما ينجر عنه من فساد أخلاقي، وهذا ما ذهبت إليه أغلب التفسيرات لهذه الآية، فقد ذهب بعض المفسرين "أن المراد بقوله تعالى (إذا أردنا أن نهلك قرية) هو إذا قرب هلاكها، فالإرادة هنا على وجه المجاز والاتساع، وإنما عني بها قرب الهلاك والعلم بكونه لا محالة. وحينئذ يكون معنى الآية مطابقا لما ذهب إليه ابن خلدون من دور الترف في الهلاك. بينما ذهب بعض المفسرين الآخرين إلى أن المراد من قوله تعالى (أمرنا) هو كثرنا. والأصل فيها آمرنا، بمد الهمزة. وعندها يكون المعنى أن كثرة الترف والمترفين كان السبب في الهلاك، وهو المطابق لما يقرره ابن خلدون من دور الترف وآثاره، إذ بعد أثر الترف في إفساد العصبية، فإن له أثره الآخر في إفساد خلال الخير[1].

والحقيقة أنه ورغم أن ابن خلدون قد وجد هذه الحقيقة المتعلقة بسنة من سنن الله في انهيار الحضارات مقررة في القرآن، وهي أن الترف يؤدي إلى هلاك الحضارة بما يتسبب فيه من فساد أخلاقي، إلا أنه حاول البرهنة عليها وتبريرها كما قلنا باستقراء التاريخ وملاحظة الواقع، فضلا عن الاستدلال العقلي، وهو ما جعله واثقا من نظريته مطمئنا لصحتها، وهو ما يفهم من قوله:

[1] ـ صائب عبد الحميد، مرجع سابق، ص ص (379ـ 380)

"واعتبر ذلك _أي ما قاله عن أثر الترف في سقوط الدولة _ في الدول التي أخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحا من غير ريبة"[1] وقوله في موضع آخر: "واستقرئ ذلك وتتبعه في الأمم السابقة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه"[2].

وقد بين عبد المجيد مزيان في تحليله لنظرية ابن خلدون بعضا من أبعادها السياسية والأخلاقية، فقال: "فلننظر بإمعان إلى ما يقوله (ابن خلدون) عن معاش الترف وإذا بنا نجده ذا أبعاد سياسية وخلقية، وإذا بالأخلاق نفسها تنقسم إلى أخلاق سياسية وأخلاق نفسية والكل متداخل ينبئ على أن ليس هناك استقلال للبنيات بعضها عن البعض الآخر. فالمترفون من أهل العصبية يتحولون انطلاقا من معاشهم إلى جبناء لا يستطيعون مدافعة العدو، وبالتالي فهم أشرار يرتكبون كل الفواحش، وسلوكهم المعاشي سلوك تبذير، ومن أجل هذا السلوك التبذيري يرتكبون المظالم. إنهم سجناء في حلقة ضيقة تدور كلها في أنواع من الشر لا يختلف بعضها عن بعض إلا بالانتقال من بنية إلى بنية أخرى. ويظهر أن الأساس في كل هذا هو المعاش نفسه"[3].

المبحث الثاني: الترف وأزمة الحضارة المعاصرة

سنحاول في المبحث الثاني من هذه الدراسة الإجابة على سؤال أساسي يتعلق براهنية نظرية ابن خلدون التي أشرنا إليها في المبحث الأول: فإلى مدى تعاني الحضارة المعاصرة من أزمة قيم؟ وما دور الترف في هذه الأزمة؟ وإلى أي مدى يمكن أن تؤدي هذه الأزمة إلى أفول الحضارة الغربية؟

يمكن القول بأن هناك شبه إجماع بين المفكرين وفلاسفة الحضارة على أن الحضارة المعاصرة تعاني أزمة خطيرة قد تؤدي بهذه الحضارة إلى

[1] ـ ابن خلدون، المقدمة، ص 170.

[2] ـ المصدر نفسه، ص 146.

[3] ـ عبد المجيد مزيان، مرجع سابق، ص 290 .

الأفول والانهيار إذا لم يتم تصحيح مسارها، وبحسب تشخيص هؤلاء المفكرين والفلاسفة سواء من الغربيين على غرار شبنجلر، توينبي، نتشه، روجيه غارودي، ألبرت شفيتسر، رينيه غينون وغيرهم أو من المسلمين على غرار مالك بن نبي وغيره، وبحسب هؤلاء جميعا، فإن هذه الأزمة هي بالأساس أزمة قيم، ويتفق الكثير من هؤلاء المفكرين مع ابن خلدون حول الأثر السلبي الكبير للترف في هذه الأزمة، وإن اختلفوا معه في المفاهيم والمصطلحات التي يعبرون بها عن ذلك، وهذا أمر طبيعي بحكم تباعد الزمن من جهة، ومن جهة أخرى بحكم أن لكل فيلسوف مصطلحاته الخاصة في بناء وصياغة نسقه الفلسفي. فالنظرية لم تفقد شيئا من بريقها وإن تغيرت بعض المظاهر والأشكال سواء فيما يخص طبيعة الترف ومظاهره، أو فيما يخص طبيعة القيم، وذلك ما لاحظه بحق عبد الله شريط في دراسته القيمة الموسومة بـ "الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون" إذ يقول: "ومن الخطأ الاعتقاد بأن العناية التي نوليها لهذا النوع عند ابن خلدن قد تعتبر من المواضيع التي فات أوانها في حياة الدولة وأخلاقيتها، وانعكاس هذه الحياة على المجتمع كله الذي يرتبط بحلقات متفاوتة مع فئات الحكم المتفسخين بالترف. بل إن هذا الموضوع يأخذ اليوم، في نظرنا أهمية أكثر من العهد الذي اعتنى فيه ابن خلدون بهذا الموضوع، وذلك لشدة ارتباط مختلف طبقات المجتمع اليوم بالدولة أكثر مما كان في السابق حيث كان المجتمع يعيش في واد والدولة في واد آخر، ولا يحتك الفريقان في أي ميدان غير ميدان الجباية وتحصيل الضرائب أو التجنيد للحرب. أما اليوم فإن كل عنصر أو كل رجل من رجال الدولة مهما حاول، أو مهما فرضت عليه مهامه الانعزال عن بقية أفراد الأمة، فإنه يبقى مرتبطا بهم، شاء أم أبى، بسبب اتساع مهام الدولة وعنايتها بكل ميادين حياة المجتمع.. ومن قبيل ذلك أننا إذا طبقنا هذه التحليلات الخلدونية لمرضى الترف وسماته النفسية، فإنا نجدها تصدق إلى حد بعيد جدا على ما نسميه اليوم بالنفسية البرجوازية بل إن الأصل اللغوي الذي تنسب إليه هذه

الكلمة تقابل تماما المعنى الذي جعل ابن خلدون معارضا للبداوة، وهو الحضر. كما أن السمات النفسية والتهافت الخلقي الذي ألصقه ابن خلدون بهذا الحضري بعد أن يخرج من طور البداوة وينغمس في الترف، هي نفسها التي نجدها في التحليلات الماركسية والتقدمية اليسارية بصفة عامة للإنسان البرجوازي، فهم يعتبرون كل الشرور الأخلاقية التي يعاني منها الإنسان البرجوازي سببها الاستسلام لشروط الحياة الحضارية، وهي تتمثل في الجشع والحرص على الراحة والأمن وما يسميه ابن خلدون بالسكينة والأمن والعافية...لأنه يجد تحت سماء هذه العافية كل ما يحقق رغباته الصغيرة وسعادته المبتذلة ورفاهيته التافهة والتمتع بخويصاته البراقة التي لا يريد أن يمسها أحد. وهو إذا حصل على ما يحسبه ثروة سرعان ما تستعبده وتقضي على حريته إزاء ما يملك بل يصبح "مملوكا لما يملك"، كما تجف ينابيع بطولته وسخائه، وتتحول عنده قيم الشجاعة إلى قيم البذخ، ويحل حب السهولة عنده محل حبه للأخطار والمغامرة وتتحول حياته البسيطة إلى كثرة في المطالب، وكل ما كان عنده كمالات زائدة يصبح ضروري يتوهم أنه لو تخلى عنها لجف حلقه وحل به الموت الزؤام. والأمن عنده ليس هو الأمن الاجتماعي أو الوطني، بل هو أمنه الخاص، وكذلك مفهومه للسعادة والشقاء. وإذا أصبح كل واحد يبحث عن أمنه هو ... فيتخلى عن وطنه أو عقيدته ويصبح لقيطا لا ينتمي إلا لنفسه ومعبوده المقدس: الرفاهية والأمن"[1].

والحقيقة أن ما يعطي المصداقية لنظرية ابن خلدون، التي نحن بصددها، في عصرنا هذا هو ما بلغته الحضارة المعاصرة من تقدم مادي وما نجم عنه من مظاهر الترف والرفاهية، بحيث يمكن القول بأن ما بلغته هذه الحضارة من ترف قد لا تضاهيه أية حضارة أخرى على مدار التاريخ وهو ما يتجلى فيما تنفقه الدول الغربية حكومات وأفراد من أموال طائلة على الكماليات من قصور

[1]عبد الله شريط، مرجع سابق، ص ص (361 _ 362).

ومباني سكنات كانت أو فنادق، وتأثيثها بأفخم المفروشات والأرائك والكراسي وتجهيزها بأحدث الأجهزة من ثلاجات وتلفزيونات وأجهزة التدفئة والمبردات، وما ينفق في المأكولات والملبوسات، وفي شراء السيارات الفخمة، وما ينفق من أموال طائلة في الراحة والاستجمام وفي حفلات اللهو والمجون وغيرها كثير من مظاهر البذخ والترف والإسراف والتبذير التي أثقلت ميزانيات الأفراد والدول. وإذا كانت مظاهر الترف هذه مؤشرا على التقدم المادي لهذه الحضارة، بحيث يتخذ منها البعض مقياسا للتقدم والرقي الحضاري وتحسن المستوى المعيشي للأفراد، فإن لهذا الترف وجه سلبي، ويتجلى ذلك فيما سببه من فساد اقتصادي، وأخلاقي واجتماعي، وبالنظر إلى أهمية العامل الأخلاقي في بناء الحضارة وتقدمها واستقرارها، فإن البعض من فلاسفة التاريخ والحضارة يرون أن الإفراط في هذا الترف وما نجم عنه من فساد أخلاقي يعد مؤشرا قويا على أزمة الحضارة المعاصرة، الأمر الذي أدى بهم إلى التشاؤم بمستقبل هذه الحضارة، ومن هؤلاء شبنجلر، توينبي، ألبرت شفيتسر وغيرهم، وفي ذلك يقول عبد الله شريط: "إن "عصرية" هذا الموضوع ما تزال قائمة عند المفكرين في أوروبا وما يزال الفلاسفة مهتمين به، وما يزال المصلحون يلفتون انتباه الساسة والمسؤولين إلى خطورته، ويلحون على عدم ترك المجتمع فريسة لعوامل الترف المدمرة ويفضلون عليها قساوة الروح الحربية مهما كانت سلبيتها"[1].

وقد أورد عبد الله شريط آراء نخبة من الفلاسفة الغربيين ممن تقاطع آراؤهم مع نظرية ابن خلدون بما يؤكد راهنية هذه النظرية أو بالأحرى بما يدل على أنها سنة من سنن قيم الحضارات وأفولها، فالذي يجمع عليه هؤلاء الفلاسفة هو أن الأمم كلما تحضرت كلما تفشى بينها الترف الأمر الذي يؤدي إلى تبدل في القيم حيث يظهر نموذج من القيم تعجل بسقوط الحضارة لتترك مكانها لحضارة ناشئة وهكذا دواليك. وسوف نحاول من جهتنا أن ننقل نصوصا

[1] ـ عبد الله شريط، مرجع سابق، ص 368.

لبعض من هؤلاء الفلاسفة والتي أوردها عبد الله شريط في دراسته عن الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، ومن جملة هؤلاء غوستاف لوبون الذي يقول في كتابه "السنن النفسية لتطور الأمم": "إن الأمم عندما تصل إلى ذروة الحضارة تترك مكانها لمن هم دونها ذكاء من الأقوام المتهمجة لأنهم أكثر متانة في القيم الأخلاقية...وإذن، فأسوأ حالة تبلغها الأمة هو درجتها العالية في الذكاء والثقافة. فالأمم تهلك عندما تأخذ الصفات الخلقية عندها في الفساد وهي تفسد عندما تسمو حضارة هذه الأمة وينضج ذكاؤها..إن سقوط الأمم ينشأ عن تغير في المزاج النفسي الذي يكون سببه هو الآخر انحطاط الأخلاق لا انحطاط الذكاء. ووجه الانحلال واحد في جميع الحضارات"[1]. فـ"لوبون" يؤكد نفس القانون الذي أكده بن خلدون من قبل وهو أن الدول والأمم تهلك بفساد الأخلاق، وإنما يحدث الفساد الأخلاقي عندما تبلغ الأمة أعلى درجات الحضارة، ذلك أن هذه الحالة تؤدي بسبب الترف إلى استبدال القيم التي كانت سببا في قيام وتطور الحضارة بقيم أخرى لا تستطيع أن تحافظ على الحضارة ومكتسباتها، وإلى هذا المعنى يشير فيلسوف آخر وهو ألكسيس كاريل في كتابه "الإنسان ذلك المجهول"، ومما جاء فيه قوله: "إن هناك علا مات معينة في الحياة العصرية تؤدي مباشرة إلى الانحلال... ونحن إذا كنا قادرين على تحمل الطغيان والحروب، فإننا عاجزون عن الكفاح بنجاح ضد التعاسة والرخاء...إن الفقر المدقع يضعف الشعب، وكذلك الثراء. ومع ذلك ما تزال توجد أسر تحتفظ بتراثها وقوتها قرونا عديدة...ونحن اليوم أبعد ما نكون عن حل مشكلة الكسل الذي خلقه الرخاء والبطالة، كما أننا عاجزون عن مكافحة نتائجها كعجزنا عن مكافحة السرطان والأمراض العقلية"[2].

[1]. شريط، مرجع سابق، ص ص(363 ــ 364).

[2]. المرجع نفسه، ص 364.

وإلى نفس المعنى يشير صاحب كتاب قصة الحضارة (ول ديورانت) إذ يقول: "إن من السنن التاريخية التي تكاد تنطبق على جميع العصور أن الثراء الذي يخلق المدنية هو نفسه الذي ينذر بانحلالها وسقوطها، ذلك أن الثراء يبعث الخمول ويرقق أجسام الناس وطباعهم، ويمهد لهم طريق الدعة والنعيم والترف، ويغري أصحاب السواعد القوية والبطون الجائعة بغزو البلاد ذات الثراء"[1]. هكذا نلاحظ كيف يقع الحافر على الحافر في هذه المسألة بما يدل على أنها سنة من سنن الله في المجتمعات والحضارات، وهو ما نبه إليه بحق ابن خلدون وبعده ول ديورانت بقرون.

وثمة مفكرين وفلاسفة آخرين يعتمدون المقاربة نفسها في تفسيرهم للحضارة وقد سبقت الإشارة إلى موقف مالك بن نبي من هذه المسألة الذي لا يختلف كثيرا عن موقف ابن خلدون سوى من حيث المفاهيم والمصطلحات، أعني من حيث الشكل لا من حيث المضمون، فمن يتتبع أثر الفكرة الدينية في تطور الحضارة وسقوطها عند بن نبي يتأكد له ذلك.

ـ طبيعة الترف في الحضارة المعاصرة

قلنا فيما سبق بأن نظرية ابن خلدون لا تزال تحتفظ ببريقها إلى يومنا هذا بحيث لم يتغير جوهرها وإن تغير شكلها، وهذا يدعونا إلى التساؤل عن طبيعة الترف في الحضارة المعاصرة؟

إننا هنا نسير في نفس الاتجاه الذي سار فيه عبد المجيد مزيان وهو التأكيد على أن ما دعاه ابن خلدون بالترف واعتبره مسؤولا عن فساد الأخلاق، ومن ثمة مسؤولا عن انهيار الدولة ، هو ما يطلق عليه في الحضارة المعاصرة بالاستهلاك، فالترف في عصرنا هذا يأخذ مظهر الاستهلاك الذي يعد سمة المجتمعات المعاصرة ليس فقط الغربية منها بل غيرها من المجتمعات على الأقل طبقات منها بالنظر إلى ظاهرة العولمة التي تشهدها المجتمعات المعاصرة

[1]. المرجع نفسه، ص 364.

حيث نشهد وحدانية السوق التي أدت إلى عولمة السلع ومن ثمة عولمة الاستهلاك، وهو ما أدى أيضا إلى عولمة الأزمة، فالعولمة لم تقتصر على الاقتصاد وحده بل هي عولمة نموذج حضاري بأكمله هو النموذج الغربي أو بالأحرى النموذج الأمريكي. فالمجتمع المعاصر هو مجتمع استهلاكي بامتياز، وفي هذه النزعة الاستهلاكية تكمن أزمة القيم، فقد جعلت هذه النزعة من الإنسان المعاصر كائنا اقتصاديا ينتج ليستهلك ويستهلك لينتج، يبحث عن لذاته العاجلة دون التفكير في عواقبها الأخلاقية، وقد أدت هذه النزعة إلى الوفرة وإلى تسارع وتيرة الإنتاج، وهو ما أدى كما يقول غارودي إلى تراكم الثروة في قطب والفقر في قطب آخر، ففي الوقت الذي تموت أناس من التخمة يموت طفل كل دقيقتين من شدة الجوع، وفي الوقت الذي تنفق الملايير في بناء المنتجعات السياحية وفي صناعة أفلام الترفيه وفي الألعاب الرياضية وفي بناء المساكن الفخمة وتأثيثها بالمفروشات الغالية، وفي شراء السيارات الفاخرة، وغيرها من الكماليات، نجد في القطب الآخر الناس تمت جوعا فلا تجد أبسط ضروريات الحياة من مأكل وملبس ومأوى، مع أن هؤلاء المترفين قد بنوا ثرواتهم على حساب هؤلاء المعدمين وذلك بنهب ثرواتهم وخيراتهم واستغلال قواهم العقلية والبدنية، فحق عليهم وصف غارودي "حفارو القبور" ذلك أنهم بترفهم هذا يتسببون في دفن الملايين من الأحياء.